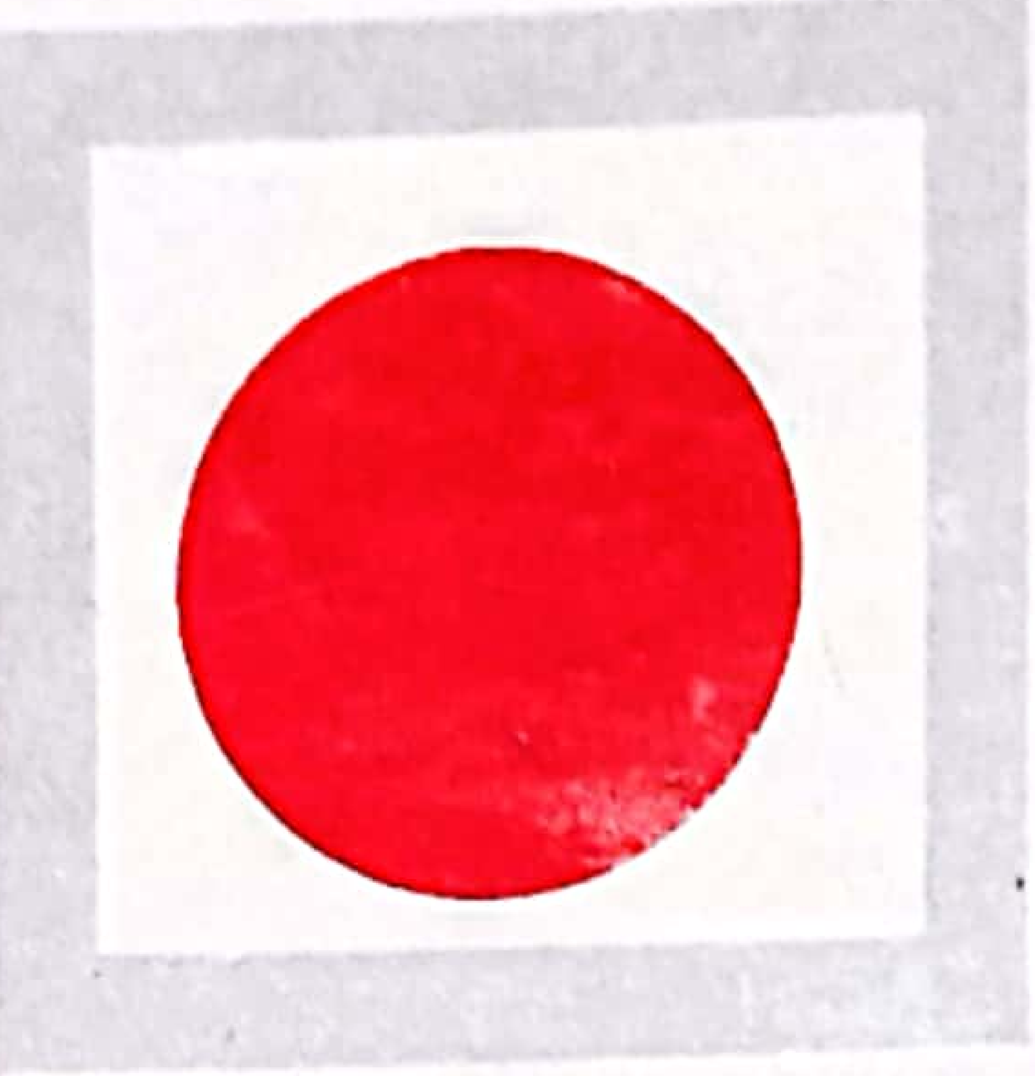




• ثقافة لجميع الأولاد •

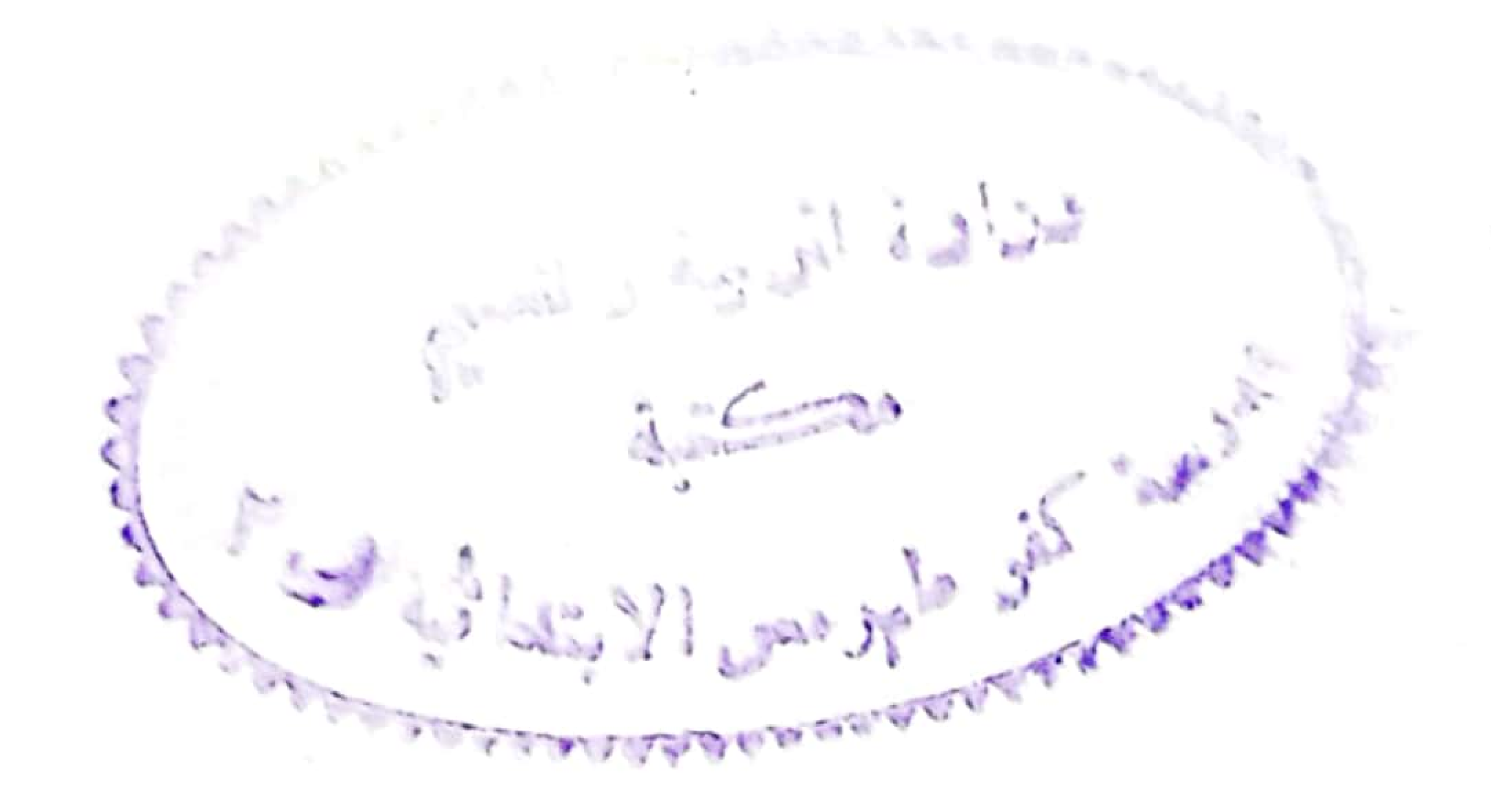
تماضر بنت عمرو بن سليم

الخنساء

وصفى آل وصفى • إبراهيم شعراوى



قُوَّادٌ وَرُوَّاد



الخنساء

تُمَاضِرُ بنتُ عمرو بن سُلَيْمٍ

للأستاذين

وَصْفى آل وَصْفِى   إبْراهيم شعراوى

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

« ١ »

سألَتْ « عَلْيَاءُ » :

– تُرَى ماذَا يفعلُ « عَرَبِى » ؟

فأشارَتْ امرأةُ عَمِّهَا إِلَى غُرْفَةِ عرَبِى ، وضَحِكَتْ تُجِيبُ :

– بالأمْسِ أهداهُ عمُّكِ كتابًا جديدًا ، وَمُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ وَهُوَ يُسْمِعُنَا وَيُسْمِعُ الجيرَانَ ما بالكتابِ مِنْ أشْعَارٍ . . بصَوْتِهِ غَيْرِ المَلِيح ! حتَّى اضْطُرِرْتُ إِلَى أنْ أُغْلِقَ علَيْهِ الباب !

ابتسَمَتْ عَلْيَاءُ ، وسارَتْ إِلَى غُرْفَةِ عرَبِي ففتحَتِ البابَ فِى هُدُوءٍ ووَقفَتْ تَنْظُرُ إِلَى ابْنِ عَمِّها . .

كانَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ اليُسْرَى كتابًا ، ويرفَعُ ذراعَهُ

إلى اليمينِ . . إلَى أسْفَلَ وإلَى أعْلَى إلى فيُحَرِّكُهَا اليُمْنَى
وإلَى اليسارِ . . ويُنْشِدُ قائِلاً :

وَإِنَّ «صَخْرًا» لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَمِقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا
وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَـــارُ
جَلْدٌ ، جَمِيلُ المُحَيَّا ، كامِلٌ ، وَرِعٌ
وَلِلْحُرُوبِ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِسْـعَارُ
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ ، هَبَّــاطُ أَوْدِيَةٍ
شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ ، لِلْجَيْشِ جَــرَّارُ

وقَلَبَ عربى الصَّفْحَةَ وَهُوَ يأخُذُ شَهِيقًا عَمِيقًا ،
فدَخَلَتْ عَلْيَاءُ وقالَتْ تُفَاجِئُهُ :

- صَخْرًا . . ونحَّارُ . . وعقَّارُ . . ومِسْعارٌ . . مَرَّةً واحِدَة ؟ مَهْلَك ! مَهْلَكَ يا عَرِبى . . لِتَفْهَم ! وَإِذا كُنْتَ تَفْهَمُ . . تَفَضَّلْ وَاشْرَح !

إِنَّنِى لا أَسْتَطِيعُ اسْتِحْسَانَ مَا لَا أَفْهَم !

* * *

أَسْرَعَ عَرِبى يُرَحِّبُ بِابْنَةِ عمِّهِ الصَّغِيرَةِ حتَّى جلسَتْ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ وَالكِتَابُ بِيُمْنَاهُ ، وبَدَأَ يَمْشِى جِيئةً وذَهَابًا لِيتَحَدَّثَ كما لَوْ كانَ أُسْتاذًا يُمْلِى علَى طَلَبَتِهِ دَرْسًا . . قالَ :

- أمَّا « صَخْرًا » فَهُوَ أَخُو « الخَنْساءِ » ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ لِوُقُوعِهِ اسْمًا لِـ « إِنَّ » . . وَ « إِنَّ » كما تَعْرِفِينَ تَنْصِبُ المُبْتَدَأَ وتَتْرُكُ الخبَرَ علَى حالِهِ مَرْفُوعًا ! وَالأبياتُ الَّتِى سَمِعْتِهَا قالَتْهَا الخَنْساءُ تَعْبِيرًا

عَنْ حُزْنِهَا على أخِيهَا صَخْرٍ ، الَّذِى كانَ يُحِبُّها ويَعْطِفُ عَلَيْهَا كَثِيرا . .

تَقُولُ الخنساءُ فِى البَيْتِ الأَوَّلِ إنَّ صَخْرًا كانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ ، وصَاحِبَ الأَمْرِ فِيهِمْ ، وَإِنَّهُ كانَ يَنْحرُ الإِبلَ فِى الشِّتاءِ . . أىْ يَذْبَحُهَا . . لِيُطْعِمَ النَّاس !

وَتُؤَكِّدُ فِى البَيْتِ الثَّانِى أَنَّهُ كانَ شُجَاعًا ، يَتَقَدَّمُ الأبطالَ إِذَا رَكِبُوا الخَيْلَ وانْطَلَقُوا لِقِتَالِ العَدُوِّ . . وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِى يُطْعِمُهُمْ إِذَا جاعُوا !

وتُشَبِّهُهُ فِى البَيْتِ الثَّالِثِ بِعَلَمٍ على رَأْسِهِ نَارٌ ، لاَ يَضِلُّ عَنْ طَرِيقِهِ مَنْ يَهْتَدِى بِهِ . . وَالعَلَمُ هُنَا مَعْنَاهُ الجَبَل !

وَتَصِفُهُ فِى البَيْتِ الرَّابِعِ بِأَنَّهُ صَبُورٌ ، جَمِيلُ الوَجْه ، كامِلُ الأَخْلاَق . . لاَ يَتَرَدَّدُ إِذَا هاجَمَ الأَعْدَاءُ قَوْمَهُ بَلْ يُسْرِعُ إِلَى شَنِّ الحَرْبِ عَلَيْهِم !

رَجَعَ عرَبِى إِلَى الكتابِ وَهُوَ يَمْشِى ، فأَسْرَعَتْ عَلْيَاءُ تقولُ فِى مَرَحٍ :

- عَظِيم ! لَمْ يَبْقَ غَيْرُ « أَلْوِيَةٍ » . .

و « أَوْدِيَةٍ » . . وَ « أَنْدِيَةٍ » ! وبَعْدَ ذَلِك . . .

وقَبْلَ أَنْ تُتِمَّ كلامَهَا عادَ عرَبِى إِلَى الشَّرْحِ قائِلاً :

- الأَلْوِيَةُ جَمْعُ اللِّواءِ ، وَاللِّوَاءُ هُوَ الرَّاية . وصَخْرٌ يَحْمِلُ الرَّايَةَ كُلَّمَا سارَ قَوْمُهُ لِقِتَالِ العَدُوِّ ، وحَمْلُ الرَّايَةِ فِى المعارِكِ دَلِيلٌ علَى شجاعَةِ حامِلِهَا !

والأَوْدِيَةُ جَمْعُ وَادٍ وَهُوَ الأَرْضُ المُنْخَفِضَةُ بَيْنَ الجِبَالِ والمُرْتَفَعَاتِ . وصَخْرٌ لا يَخْشَى النُّزُولَ إِلَى تِلْكَ الأَوْدِيَةِ إِذَا ما اشْتَدَّ القِتَال !

والأَنْدِيَةُ جَمْعُ نَاد . .

لَمْ تَكَدْ عَلْيَاءُ تَسْمَعُ كَلِمَةَ «نادٍ» حتّى صاحَتْ :

- وصَخْرٌ يَحْضُرُ الأَنْدِيَةَ فَهُوَ إذَنْ رِياضِيٌّ كَبِير !

فَنظَرَ إِلَيْهَا عرَبِي وابتَسَمَ . ثُمَّ قالَ :

- لا ياعَلْيَاء ! لم يَكُنِ العَرَبُ يَجْتَمِعُونَ فِي نوادِيهِمْ لِيَلْعَبُوا الكُرَة ! كانَتْ أَنْدِيَتُهُمْ أَماكِنَ مُخَصَّصَةً لِمُنَاقَشَةِ الأُمُورِ الهامَّةِ بِمَعْرِفَةِ السَّادَةِ والرُّؤَساءِ . وكانَ صَخْرٌ يَشْتَرِكُ فِي تِلْكَ الأَنْدِيَةِ كما تَقُولُ الخَنْسَاءُ . . فَهُوَ إِذَنْ مِنَ السَّادَةِ والرُّؤَساءِ . . وَهُوَ إِذَنْ صَاحِبُ رَأيٍ يَحْتَرِمُهُ النَّاس !

واختَتَمَ عرَبِي شَرْحَهُ قائِلاً :

- وهَكَذَا ياعَلْيَاءُ . جمعَتِ الخَنْسَاءُ كُلَّ الصِّفَاتِ العَظِيمَةِ فِي شَخْصِ أَخِيها صَخْرٍ . الَّذِي كانَ يَقُودُ جَيْش قبيلَتِهِ الجَرَّارَ لِلانتِصَار !

« ٢ »

ابتسمَتْ علْياءُ وقالَتْ :

- عَرَفْنا مَعْنَى ما نَظَمَتِ الخَنْسَاءُ فِي وصَفِ أخيَها صَخْرِ الَّذِى كانَ يُحِبُّهَا ويَعْطِفُ عَلَيْهَا كَثِيرًا ، فَمَنْ . . ياتُرَى . . تكونُ الخَنْسَاءُ أُخْتُ صَخْرَ ؟ !

فَجَلَسَ عرَبِى يَضْحَكُ ويقُولُ :

- قِصَّةُ الخَنْسَاءِ حِكَايَتُهَا تَطُولُ وتحَتَاجُ لِجلْسَةٍ مُرِيحَة !

ثُمَّ شَرَعَ يتحَدَّثُ قائِلاً :

- الخَنْسَاءُ ، ياعَلْيَاءُ ، اسْمٌ يُطْلَقُ علَى الفَتَاةِ عِنْدَمَا يُشْبِهُ أَنْفُهَا أَنفَ الغَزَالِ الجَمِيل . .

وَفِى الحالِ رفعَتْ عَلْيَاءُ يَدَهَا مُعْتَرِضَةً وَهِىَ تَسْأَلُهُ مُسْتَنْكِرَةً :

متى وُلدتْ أختي الخنساءُ.. وبعدَ «متى وُلدتْ ؟» يخشَنُ أنْ . . .

فرفعَ عربي يدَهُ يستمهلُها ، وقالَ بسرعةٍ :

– حتّى لا تتعبي وتسألينى السُّؤالَ بعدَ السُّؤالِ . أريحُكِ وأريحُ نفسى فأُخبرُكِ بكُلِّ ما قرأتُهُ عن الخنْساءِ !

ثُمَّ جعلَ يُقلّبُ صفحاتِ الكتابِ . فلمَّا وجدَ ما يُريدُ استأنفَ كلامَهُ قائلاً :

– وُلدتِ الخنْساءُ قبْلَ الإسلامِ بخمْسينَ عامًا تقْريبًا ، في قبيلةِ «بنى سُليم» . ولمْ يكُنْ للخنْساءِ أخواتٌ ، وكانَ لها أخوانِ فقطْ . . هُما «مُعاويةُ» وصخرٌ . .

وطالَ رُجوعُ عربي إلى الكتابِ قبْلَ أنْ يُغلقَهُ ويقولُ مُعتذراً :

- لِلأَسَفِ ، لا يَتَحَدَّثُ الكتابُ عَنْ طُفُولَةِ الخَنْسَاء . لَكِنَّ ذَلِكَ لأَيْهِمُّ ، فالأَطْفَالُ جَمِيعاً . . فِي كُلِّ مَكانٍ وزَمَانٍ . . يَلْعَبُونَ حَتَّى يَكْبُرُوا !

وقَدْ كَبِرَتِ الخَنْسَاءُ كَغَيْرِهَا مِنَ البَنَاتِ ، وتقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا بَعْضُ سَادَةَ العَرَبِ فرفضَتْهُمْ . . وَأَعْلَنَتْ حتّى أَنَّها لا تَقْبَلُ إلاَّ واحِدًا مِنْ أبْنَاءِ عُمُومَتِهَا !

وَانتظَرَتْ حتَّى طلَبَ يدَها قَرِيبٌ مِنْ أبْنَاءِ القبيلَةِ ، فلَمْ تترَدَّدْ فِي قُبُولِهِ زَوْجا . .

لَكِنَّ زَوْجَهَا كانَ مَرِيضًا بِدَاءِ المَيْسِرِ !

ظَهَرَ التَّأَثُّرُ على وَجْهِ عَلْيَاءَ وَهِيَ تقُولُ :

- مِسْكِينَةٌ الخَنْسَاء ! مِسْكِينٌ زَوْجُهَا ! لِكَنَّنِى لَمْ أَسْمَعْ يا عرَبِى بِمَرَضِ المَيْسِرِ هذَا مِنْ قَبْلُ !

فضَحِكَ عرَبِى وقالَ :

- المَيْسِرُ هُوَ القِمَارُ ياعَلْيَاءُ ، وقَدْ كانَ زَوْجُ الخَنْسَاءِ مُصَابًا بِدَاءِ القِمَارِ . وعلَى موائِدِ القِمَارِ كانَ يَفْقِدُ مالَهُ ويَعُودُ إلَى الخَنْسَاءِ مُفْلِسًا !

ولَمْ تكُنِ الخَنْسَاءُ تَجِدُ ما تَفْعَلُهُ غَيْرَ اللُّجُوءِ إلَى أَخِيهَا صَخْرٍ تَشْكُو إِلَيْهِ حالَها . .

وسَأَلَتْهُ عَلْيَاءُ بسُرْعَةٍ :

- وَلِمَاذَ لَمْ تكُنْ تَشْكُو إلَى أبيهَا أَوْ إلَى أَخِيَها مُعَاوِيَة ؟

فحَكَّ عرَبِى رَأْسَهُ ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وأجابَ :

- الإنسانُ يَلْجَأُ دائِماً إلَى أكْثَرِ النَّاسِ عَطْفًا عَلَيْه ! وَلَقَدْ لَجَأَتِ الخَنْسَاءُ إلَى صَخْرٍ أَرْبعَ مَرَّاتٍ . وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَقْسِمُ مالَهُ نِصْفَيْن . . وَيُعْطِيهَا أحَدَهُمَا !

بَلْ إِنَّهُ كانَ يُعْطِيهَا أَفْضَلَ النِّصْفَيْن !

هزَّتْ علْيَاءُ رَأْسَهَا وقالَتْ تُعَبِّرُ عَنِ استِحْسَانِهَا :

- هَكذَا تَكُونُ الأُخُوَّة ! أَحَبَّها فِي حياتِهِ حُبًّا عَظِيمًا ، فلمَّا ماتَ قالَتْ فِيهِ تِلْكَ الأَبْيَاتِ الَّتِي نَسَبَتْ إِلَيْهِ بِهَا كُلَّ الصَّفَاتِ العَظِيمَة !

فعَقَّبَ عَرِبي قائِلاً :

- لَقَدْ عاشَتِ الخَنْسَاءُ بَعْدَ أَخِيها صَخْرٍ نِصْفَ قَرْنٍ تَقْرِيبًا ، فَلَمْ يَهْدَأْ حُزْنُهَا عَلَيْه . مَزَّقَتْ خِمَارَهَا ، ولَبِسَتْ صِدَارًا مِنَ الشَّعْرِ ، وعاشَتْ تَرْثِيهِ بِأَجْمَلِ مَا قالَ الشُّعَرَاءُ مِنْ رِثَاء . .

وهمَّتْ عَلْيَاءُ بِالسُّؤَالِ فسَبَقَهَا عَرِبي إِلَى الكَلاَمِ . . قالَ بِسُرْعَةٍ :

- أَعْرِفُ . . أَعْرِفُ . . ما مَعْنَى الخِمَارِ . والصِّدَار ؟ ! الخِمَارُ غِطَاءُ الرَّأْسِ ، وَتَمْزِيقُهُ تَعْبِيرٌ عَنِ الحُزْنِ . . أَمَّا الصِّدَارُ فثَوْبٌ يُغَطِّي

الَصَّدْرَ وَقَدْ لَبِسَتِ الخَنْسَاءُ صِدَارًا مِنْ شَعْرٍ بَعْدَ مَوْتِ صَخْرٍ لِتَحْرِمَ جِسْمَهَا طَعْمَ الرَّاحَةِ والمُتْعَةِ . . وظَلَّتْ تَلْبَسُهُ بَقِيَّةَ حَيَاتِهَا حتَّى يَصْدُقَ ماقالَهُ عَنْهَا !

بَدَتِ الدَّهْشَةُ فِي عَيْنَىْ عَلْيَاءَ وَهِيَ تَسْأَلُ :

– ما قالَهُ عَنْهَا ؟ !

فأجابَ عَرَبِى مُؤَكِّدًا :

– أجَلْ ، وَلِهَذا الحديثِ قِصَّةٌ أَحْكِيهَا لَكِ إذَا أَحْبَبْتِ . .

عِنْدَئِذٍ ضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وقَالَتْ بِمَرَحٍ :

– أحْبَبْتُ . . فأسَرِعْ إذَنْ وَاحْكِهَا لِى !

قالَ عرَبى لابْنَةِ عمِّهِ عَلْيَاءَ :

– أخبَرْتُكِ أنَّ الخَنْسَاءَ وُلِدَتْ قَبْلَ الإسلامِ بِنحْوِ خَمْسِينَ عاماً ، فلمَّا كانَتِ السَّنَةُ الثَّامِنَةُ لِلهِجْرَةِ أسلَمَتْ مَعَ قَوْمِهَا بَنِى سُلَيْم وبايَعَتِ الرَّسُولَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم . .

وكانَتْ قَدْ فقَدَتْ أخَوَيْهَا ، مُعَاوِيَةَ وصَخْرًا . واشْتَدَّ بِهَا الحُزْن . فَرَقَّ لَهَا الرسُولُ صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ ، واسْتَمَعَ إلَى بَعْضِ أشعارِهَا الحَزِينَةِ . .

ومضَتِ الأيَّام ..

ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهَا السَّيدَةُ « عائِشَةُ » أُمُّ المُؤْمِنِينَ يَوْمًا ، ورَأَتْهَا عَجُوزًا تَمْشِى مُتَوَكِّئَةً على عَصًا وقَدْ حلَقَتْ رَأْسَهَا ولَبِسَتْ صِدَارَ الشَّعْرِ . فلامَتْهَا ! غَيْرَ أَنَّ الخَنْسَاءَ اعتذَرَتْ لِلسَّيدَةِ عائِشَةَ بِحُزْنِهَا الشَّدِيدِ

علىَ صَخرٍ الّذِى كانَ يُحِبُّهَا ولا يَبْخَلُ عليْها بماله ، وَقصّتْ عليْها قِصّةَ الصِّدَار . .

حدَّثَتِ الخَنْسَاءُ السَّيدةَ عائِشَةَ فروَتْ لَها كَيْفَ كانَ زَوْجُهَا الأوّلُ يَفقِدُ المالَ علَى موائِدِ القِمار ، وكَيْفَ كانَتْ تَذْهَبُ إلَى صَخرٍ فيُعْطِيهَا نِصْفَ ما يَمْلِك . .

وأخبرَتْهَا أَنّ امرأةَ صَخرٍ كانَتْ تلُومُهُ كُلّمَا قَسَمَ مالَهُ وقدّمَ لَها أَفْضَلَ النِّصْفَيْنِ . فلمّا قصدتْهُ فِى المرّةِ الرَّابعةِ وشَرَعَ يفعَلُ ما كانَ يفْعلُهُ كُلّ مَرّةٍ احْتَجّتِ امرأتُهُ بأَنّ زَوْجَ الخَنْسَاءِ سَوفَ يفْقِدُ المالَ علَى أيّ حَالٍ . . وطلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بأَفْضَلِ النِّصْفَيْنِ ويُقدِّمَ لَها أقَلّهُمَا قِيمَة ! لَكِنّ صَخْرًا لمَ يَسْتَجِبْ لِطَلَبِ امرأتِهِ ، ورَدّ عليْهَا بِشِعْرٍ يُشِيرُ فِيهِ إِلَى الخَنْسَاءِ فيُقُولُ :

وَلَوْ هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا

وَاتَّخَذَتْ مِنْ شَعَرٍ صِدَارَهَا

وَأَطْرَقَتِ الخَنْسَاءُ قَلِيلاً وَيَدُهَا عَلَى صِدَارِهَا . ثُمَّ قَالَتْ تُخَاطِبُ السَّيدَةَ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ :

— وَاللهِ لا أُخْلِفُ ظَنَّهُ ، وَلا أُكَذِّبُ قَوْلَه مَا حَيِيتُ !

* * *

قَالَتْ عَلْيَاءُ بَعْدَ لَحَظَاتٍ مِنَ الصَّمْتِ :

— وَهَكَذَا عَاشَتِ الخَنْسَاءُ تَلْبَسُ صِدَارَ الشَّعرِ وَفَاءً لِذِكْرَى أَخِيهَا ، وَتَحْقِيقًا لِمَا قَالَهُ فِي ذَلِكَ البَيْتِ . .

فَأَضَافَ عَرَبِي بِسُرْعَةٍ :

ـ وَخَلَّدَتْ ذِكْرَاهُ بِشِعْرِهَا . .

صَحِيحٌ أَنَّ الخَنْسَاءَ قَالَتْ شِعْرًا جَيِّدًا فِي رِثَاءِ أَخِيهَا مُعَاوِيَةَ ، غَيْرَ أَنَّ شِعْرَهَا فِي رِثَاءِ صَخْرٍ كَانَتْ

لَهُ الغَلَبَةُ مِنْ ناحِيَةِ الكَثْرَةِ والجَوْدَةِ . . حتَّى أصْبَحَتِ الخَنْسَاءُ تُذْكَرُ فلاَ يُذْكَرُ إلاَّ صَخْر !

وفَتَح عرَبِى الكتابَ فابتسَمَتْ علْيَاءُ وقالَتْ :

– مِنْ أَجْلِى يا عرَبِى ، حاوِلْ أَنْ تختارَ الأبْيَاتَ الَّتِى لا تحتَاجُ لِشَرْحٍ . . فأنَا أُحِبُّ الشِّعْرَ أكْثَرَ مِنْكَ لَكِنَّنِى أَعْجَزُ عَنْ تَذَوُّقِ الغَامِضِ مِنْه !

فهَزَّ عرَبِى رَأْسَهُ وبَدَأَ يُنْشِدُ :

أَلاَ لَيْتَ أُمِّى لَمْ تَلِدْنِى سَوِيَّةً
وَكُنْتُ تُرَابًا بَيْنَ أَيْدِى القَوَابِلِ
وخَرَّتَ على الأَرْضِ السَّمَاءُ فطَبَّقَتْ
وماتَ جَمِيعًا كُلُّ حافٍ وناعِـلِ
غَدَاةَ غَدَا نَاعٍ لِصَخْرٍ فَرَاعَنِى
وأَوْرَثَنِى حُزْنًا طَوِيلَ البَلاَبِلِ

* * *

ثانٍ؟ وماذا جرَى لِزَوْجِهَا الأَوَّل ؟

وسُرْعَانَ مارَدَّ عربِى على أسئِلَةِ علْيَاء ، قالَ :

– لَمْ أشأْ أَنْ أَقْطَعَ تَسَلْسُلَ الحَدِيثِ ، أَمَّا وقَدْ تَنَبَّهْتِ لمَا قُلْتُ . . فَقَدْ حانَ الوُقْتُ لِكَىْ نَعُودَ إِلَى تَفْصِيلِ حَيَاةِ الخَنْسَاءِ . . حتَّى تكْتَمِلَ لَدَيْكِ صُورَتُها ولاَ تَظُنِّى أَنَّنِى تجاهَلْتُ أَمْرًا أَوْ جَهِلْتُه !

والوَاقِعُ أَنَّ الخَنْسَاءَ كانَتْ سَيِّئَةَ الحَظِّ فِى زَوَاجِهَا الأَوَّلِ ، فلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنْ زَوْجِهَا المُقَامِرِ بَعْدَ أَنْ أَنْجَبَتْ مِنْهُ وَلَدًا واحِدًا يُعْرَفُ بِاسْمِ « أَبِى شَجَرَة » . .

ثُمَّ أَنْجَبَتْ أَرْبعَةَ بَنِينَ وَبِنْتًا مِنْ زَوْجِهَا الثَّانِى الَّذِى تُوُفِّىَ وَهُمْ أَطْفَالٌ صِغَار . .

ووَقَفَ أَخَوَاهَا مُعَاوِيَةُ وصَخْرٌ بِجَانِبِها بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا الثَّانِى ، فلَمْ يَتْرُكَاهَا تُقَاسِى مَذَلَّةَ الحاجَةِ .

وحَرِصَ صَخْرٌ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ على أَنْ يرْعاها ويَحْمِلَ عَنْهَا عِبْءَ أَوْلادِهَا اليَتامى . .

لَكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أَنْ فَقَدَتْ مُعاوِيَةَ ، ثُمَّ فَقَدَتْ صَخْرا . .

قُتِلَ مُعَاوِيَةُ فِي إِحْدَى المعارِكِ الَّتِى كانَتْ تَنْشَبُ بَيْنَ فُرْسَانِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلامِ وَفِى معرَكَةٍ أُخْرى أُصِيبَ صَخْرٌ بطَعْنَةٍ مزَّقَتْ جَنْبَهُ ، فعاشَ بَعْدَها عاماً طَرِيحَ الفِرَاشِ . .

ثُمَّ ماتَ صَخْرٌ ، فحَزِنَتْ علَيْهِ الخَنْسَاءُ ذَلِكَ الحُزْنَ الَّذِى ذَهَبَ مَضْرَبَ المَثَلِ . . وقالَتْ فِيهِ ذَلِكَ الشِّعْرَ الَّذِى نُنْشِدُهُ ونُعْجَبُ بِهِ اليَوْمِ !

وسَكَتَ عَرَبِى قَليلاً ثُمَّ استَأْنَفَ كَلامَهُ قائِلاً :

- ولَمْ تَنْتَهِ مصائِبُ الخَنْسَاءِ عِنْدَ هَذا الحَدِّ .

فَإِنَّ ابْنَهَا البكْرَ « أَبَا شَجَرَة » وقَعَ فِي مِحْنَةٍ شَدِيدَةٍ



حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ .. هَبَّاطُ أَوْدِيَة

- وهَلْ بانَ جَمالُ أَنْفِها ساعَةَ وِلادَتِها حتَّى . . .

فأسْرَعَ عَرَبِي يقولُ مُوَضِّحًا :

- أنْتِ على حَقٍّ يا عَلْيَاءُ ، فالواقِعُ أَنَّ الخنساءَ لَيْسَ اسْمَ شَاعِرَتِنَا الحقِيقِيَّ . . إِنَّهُ الاسْمُ الَّذِى أُطْلِقَ علَيْهَا وعُرِفَتْ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَبِرَت . .

عِنْدَئِذٍ تناوَلَتْ عَلْيَاءُ الكِتابَ وقالَتْ :

- هاتِ إِذَنْ اسْمَها الحَقِيقى !

وطالَعَتْ عُنْوَانَ الكِتابِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ قائِلَةً :

« تُماضِرُ بِنْتُ عَمْرو بْنِ الحارِث . . شاعِرَةُ بَنِى سُلَيم » . .

ثُمَّ أضافَتْ عَلى الفَوْرِ وَهِىَ تَرُدُّ الكِتَابَ إِلىَ عَرَبِى :

- هَذَا عَظِيم ! لَكِنْ . . أَعْظَمُ مِنْهُ أَنْ تُخْبِرَنِى

أَلاَ يَاصَخْرُ إِنْ أَبْكَيْتَ عَيْنِي
لَقَدْ أَضْحَكْتَنِي زَمَنًا طَوِيلاً
بَكَيْتُكَ فِي نِسَاءٍ مُعْوِلاَتٍ
وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْـدَى عَوِيلاً
إِذَا قَبُحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ
رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلاً

* * *

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا
وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسِ
وَلَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ
أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّـــي
فَلاَ وَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ حَتَّى
أُفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَمْسِي

« ٤ »

أغْلَقَ عرَبى الكتابَ وَنَظَرَ إلَى ابْنَةِ عمِّهِ ، فابتسمَتْ عَلْيَاءُ وأجابَتْ على سُؤَالِهِ الصَّامِتَ قَائِلَةً :

– أحسَنْتَ الاِخْتِيَارَ ، فلَمْ يَغْمُضْ عَلَىَّ الكَثِير ! وبَعْدَ أَنْ تَنْتَهِىَ مِنْ قراءَةِ الكتابِ أقْتَرِضُهُ مِنْكَ لأَقْرَأَهُ عَلَى مَهَلٍ ، ويَشْرَحَ لِى والِدِى كُلَّ مالاَ أفْهَمُهُ مِنْ كَلِماتٍ أَوْ عِبَارَات . .

وفَجْأَةً تظاهَرَتْ بِالغَضَبِ وقالَتْ تُعَاتِبُهُ :

– ولَكِنَّكَ مازِلْتَ علَى عادَتِكَ . . تَدُسُّ كلامًا هامًّا بَيْنَ الجُمَلِ ولا تَتوقَّفُ لإِيضَاحِه !

ورَفَعَ عرَبى حاجِبَيْهِ مُسْتَفْهِمًا فأضافَتْ عَلْيَاءُ :

– سَمِعْتُكَ تُشِيرُ مُنْذُ قَلِيلٍ إلَى زَوْجِ الخَنْسَاءِ المُقَامِرِ بِعِبَارَةِ « زَوْجِهَا الأَوَّل » . . فَهَلْ كانَ لَهَا زَوْجٌ



وَلَوْ هَلَكْتُ . . مَزَّقَتْ خِمَارَها

هى مِحْنَةَ الارْتِدادِ عن الإسْلام.!

واشتِراكَ فى قِتالِ المُسْلمين بَعْضَ الوقْت قبْل أنْ يَتُوب !

وآخِرُ ما أصابَ الخنْساء فَقْدُ أبْنائها الأرْبعة الَّذينَ أنْجَبَتْهُمْ مِنْ زَوْجِها الثَّانى . فقدِ اشْتَركُوا فى فَتْحِ « فارِسٍ » واسْتُشْهِدُوا فى وَاقِعَةِ « القَادِسِيَّة » . .

فلمَّا حَمَلَ الجُنُودُ خَبَرَ اسْتِشْهَادِهِمْ إلَى الخَنْسَاءِ ، قالَتْ : « الحَمْدُ لله الَّذِى شَرَّفَنِى بِقَتْلِهِمْ ، وأرْجُو أنْ يَجْمَعَنِى رَبِّى بِهِمْ فى مُسْتَقَرِّ الرَّحْمَة . . » !

وعاشَتْ بَعْدَهُمْ سِنِينَ كَثِيرَةً فَلمْ تَبْكِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ تَرْثِهِمْ بِبَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الشِّعْرِ .

لَمْ تُدْهَشْ عَلْيَاءُ ، بَلْ أسْرَعَتْ تُفَسِّرُ موقِفَ الخَنْسَاء قائِلَةً :

- لقد استُشهد أبناؤها فى سبيلِ الله ، والشُّهداءُ أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزَقُون . لذلك لم تستسلم الخنساءُ لِلحُزنِ والنُّواحِ بعدهُم كما حدث بعد مقتلِ أخويْها مُعَاوِيَةَ وَصَخرٍ !

فهزَّ عربى رأسَهُ مُوافِقًا ، وأضافَ :

- يُؤَكِّدُ هذا حَدِيثُهَا مَعَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ « عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ » ، فَقَدْ أَرادَ الخَلِيفَةُ أَنْ يَرُدَّها عَنِ الحُزْنِ والنُّواحِ على أَخَوَيْهَا . . وقالَ يَعِظُهَا :

- إِنَّ الَّذِى تَصْنَعِينَ لَيْسَ مِنَ الإِسْلاَمِ . . وَإِنَّ الَّذِينَ تَبْكِينَ هلكُوا فِى الجَاهِلِيَّةِ وَهُمْ حَشْوُ جَهَنَّم . .

فردَّتِ الخنساءُ كما لوْ كانتْ تعتذِرُ عنْ سُلوكِها :

- ذَلِكَ أَدْعَى لِحُزْنِى عَلَيْهِم !

تَعْنِى أَنَّ مَقْتَلَ أَخَوَيْهَا قَبْلَ الإِسْلَامِ يُضَاعِفُ مِنْ إِحْسَاسِهَا بِاللَّوْعَةِ لِفَقْدِهِمَا ، فَهِىَ لا تَرْجُو الاجْتِمَاعَ بِهِمَا فِى الدُّنْيَا أَوِ الآخِرَة !

ومَضَتْ لَحَظَاتٌ ، ثُمَّ فَتَحَ عَرَبِى الكِتَابَ وشَرَعَ يُنْشِدُ ابْنَةَ عَمِّهِ مَزِيدًا مِنْ شِعْرِ الخَنْسَاء . .